الفصل الرابع

القدس في الشعر الفلسطيني المعاصر

مروة جبر

القدس، هذه المدينة المقدسة المعمرة العامرة المعمورة العصية على التاريخ، تعددت أسماؤها، فمن أورسليما في سجلات الفراعنة، إلى يبوس، نسبةً إلى اليبوسيين، إلى أليا كابيتولينا، حتى سماها العرب عندما سيطروا عليها عام ٦٣٨م القدس.

بقيت المدينة طوال تاريخها عرضةً للغزو، والغزو المضاد، وبالتالي للحروب والمعارك، لكنها بقيت صامدة، ثابتة، تحمل تاريخ من مروا عليها نقشًا على صفحات أسوارها وجدران مبانيها من مساجد، وكنائس، ودور علم. لذلك كانت عظمتها مصدرًا لإلهام الشعراء على مر العصور، وما يهمنا في هذا المقام ما كتبه الشعراء الفلسطينيون عن المدينة في عصرها الحديث، وما تعيشه من معاناة، وما نالها من عسف الاحتلال.

فكان تاريخها وحيًا للاستشهاد به على عظمتها، أو لاستنهاض الهمم لإنقاذها من طغيان الاحتلال، فهذا أبو سلمى(*) يقول في ثلاثينيات القرن الماضي، بمناسبة بناء قصر المندوب السامي البريطاني، فوق جبل المكبِّر:

في نـاحـيـة شـهـيـد خـالـد ... هـو مـن يـنـادي لا نـريـد دخيلا

قم يا شهيد القوم واخطب في الورى ... أصبحت حيًّا مذ غـدوت قتيلا

(*) هو عبد الكريم الكرمي، من مواليد طولكرم، عام ١٩١٠، تلقى فيها تعليمه، نزح إلى سورية، عام ١٩٤٨، وعمل في الإذاعة السورية، وفي وزارة العدل. عُرف بزيتونة فلسطين، عمل في «منظمة التحرير الفلسطينية»، توفي عام ١٩٨٠، كان في شبابه معاصرًا للشاعر إبراهيم طوقان، وقد جمعتهم صداقة حميمة.

جبل المكبرّ طال نومك فانتبه قم واسمع التكبير والتهليلا
فكأنما الفاروق دوّى صوتُه فجلا لنا الدنيا وهز الجيلا
جبل المكبر لن تلين قناتنا ما لم نحطم فوقك الباستيلا

وينشد الشاعر أديب رفيق محمود(*)، مستوحيًا تاريخ صلاح الدين الأيوبي

أواه يا مدينة السلام
يا روعة الصهيل، كوكبة الخيول
تعبر الأبواب في وضح النهار
هذا صلاح الدين.

أما الشاعر هارون هاشم رشيد(**)، فقد خاطب في قصيدة موجهة إلى عمر بن الخطاب، يستعرض أبطال الفتوحات الإسلامية، ثم يصف الحال المعاصر، ويخاطب ابن الخطاب قائلًا:

أبا حفصٍ وللتاريخ في وجداننا صور
نراجعها فلا نأسى بما فيها ونعتبر
ونقرأ كيف أن الحق دون السيف ينكسر
بغير السيف لا فتحٌ ولا عودٌ ولا ظفر
فكيف نظل في الأعتاب والأبواب ننتظر
وكيف تراه يرجعنا إلى الأوطان مؤتمر.

ويشترك المسلم والمسيحي من الشعراء في الاستلهام من الأماكن المقدسة لأصحاب الديانتين، حيث الهم واحد، والمحنة مشتركة، فنجد أدمون شحادة(***) يقول:

يا لهف الكنائس المنزرعة في كل أشواك الحقول
وفي عيون حاملي صليبها وقبة الأجراس في أعيادها.

ثم يتابع:

يا بهجة المساجد العالية الأعناق
ويا امتداد ومضة الإيمان
في القلب والشفاه

(*) ولد في إحدى قرى جنين، عام ١٩٣٣. تلقى تعليمه في بلدته الأم، عنبتا، وطولكرم، ونابلس، عمل مدرسًا، وكتب العديد من الدواوين، والكتب النثرية، والدراسات النقدية.
(**) ولد بمدينة غزة، عام ١٩٢٧، أنهى دراسته الثانوية في كلية غزة، ونال شهادة المعلمين. عمل في حقل التعليم، وإذاعة «صوت العرب»، ومكتب «منظمة التحرير الفلسطينية» في غزة، والقاهرة، إنتاجه الشعري غزير، كتب المسرحية الشعرية، وله دراسات وأعمال أدبية.
(***) ولد في حيفا عام ١٩٣٣، أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٥٠، أصدر العديد من الدواوين الشعرية.

ووحدة الرحمن.

أما الدكتور فاروق مواسي(*)، فقد استعار درب الآلام والقيامة، للتعبير عن الهم الوطني فأنشد قائلًا:

كنيسة تدق في أجراسها

«قيامة» مسيحيًّا يا ناصري

يا درب آلامي أسير صابرًا

أمشي على إيلام جرح طاهر .

كما أن الشاعرة القديرة فدوى طوقان(**) استخدمت الرموز الدينية المسيحية في شعرها حين قالت:

يا سيد مجد الأكوان

في عيدك تطلب هذا العام

أفراح القدس

صمتت في عيدك

يا سيد كل الأجراس

القدس عى درب الآلام

نجلد تحت صليب المحنة

تنزف تحت يد الجلاد

والعالم قلب منغلق

دون المأساة

.....

يا سيد مجد القدس

يرتفع إليك أنين القدس

رحماك أجز يا سيد هذي الكأس.

ولم يختلف أمين شنار(***) في هذا المجال، ففي قصيدته «بيت المقدس» يقول:

هنا المآذن الحزينة التي تسامر النجوم

تمتد في وجوم

(*) ولد في باقة الغربية، عام ١٩٤١، وأنهى تعليمه الثانوي في بلدة الطيبة، وهو أستاذ محاضر في عدد من الجامعات في فلسطين (١٩٤٨)، وهو أديب، وشاعر، وباحث، شغل مواقع أدبية عديدة، له مؤلفات في مجالات أدبية عدة، من بينها «القدس في الشعرالفلسطيني الحديث»، وهي دراسة قيِّمة في هذا المجال.

(**) ولدت عام ١٩١٧، في مدينة نابلس، وهي إحدى أهم شاعرات فلسطين في القرن العشرين، وهي شقيقة الشاعر إبراهيم طوقان، وتعتبره عرَّابها، ومعلمها، تأثرت كثيرًا بوفاته، لكن روحه بقيت معها، حتى وفاتها عام ٢٠٠٣، مؤثرة فيما تكتبه من أشعار.

(***) شاعر، وأديب، وصحفي، ومفكر، ولد في ألبيرة عام١٩٣٣ .

وههنا الأسوار مرفوعة الهامات في إصرار

.....

المسجد الأقصى هنا مسرى الرسول

مشى المسيح ها هنا وأمه البتول

وههنا الفاروق شاد مسجدًا

هنا صلاح الدين روَّع العدا

هنا الوليد، والمجيد، والشهيد.

أما الشاعر إبراهيم رجا سلامة(*) فقد جاء في ديوانه «**تراتيل مقدسية**» قصيدة بعنوان «**الإسراء الأخير في رثاء شهداء الأقصى**» قال فيها:

والأغنيات العذاب في فيك شدو وغلال

طريق لنا والمراثي في فمنا تكفي السؤال

طريق لله شهادة وابتهال

ولك من العذر

من الصبر

من القهر

ألف سؤال وسؤال

بين القيامة والصخرة وعلى ثغور القدس

البراق يحط على جداره تمتطيه نبيًّا

ورحيل الشهداء إسراء.

ولم يقتصر الاستشهاد بالرموز الدينية المسيحية والإسلامية فحسب، فقد استخدم الشاعر محمود درويش(**) الرموز التوراتية، أيضًا، ففي مقطوعة أفردها للقدس، بعنوان «**المزامير**»، وهي المقطوعة السابعة عشرة من ديوان «**أحبك أو لا أحبك**» جاء:

وتغني القدس

يا أطفال بابل

(*) شاعر فلسطيني ولد في أم الزينات، وعاش في دمشق، يترقب يوم العودة، عرف السجون والمعتقلات الصهيونية، وجاء ديوانه الثاني بعنوان «تراتيل مقدسية»، وفي قصيدة وصف فيها الشهيد بعنوان «الإسراء الأخير»، في رثاء شهداء الأقصى.

(**) ولد في قرية البروة، في الجليل، قرب عكا، عام ١٩٤١، عاش في قرية الجديدة، بعد أن دمرت سلطات الاحتلال قريته، وأقامت على أنقاضها قرية زراعية إسرائيلية، بعد أن أنهى دراسته الثانوية انتسب إلى الحزب الشيوعي، عمل في العديد من الصحف، ولديه دواوين عدة، وهو من أبرز الشعراء الفلسطينيين، وأسهم بتطوير الشعر الحديث، وإدخال الرمزية فيه، والبراعة في استخدام الرموز الدينية، سواء الإسلامية، أو المسيحية، أو التوراتية.

obeikan.com

يا مواليد السلاسل

ستعودون إلى القدس قريبًا

وقريبًا تكبرون

وقريبًا تحصدون القمح من ذاكرة الماضي

وقريبًا يصبح الدمع سنابل

آه يا أطفال بابل

ستعودون إلى القدس قريبًا

هللويا

هللويا.

يقول الدكتور فاروق مواسي في بحثه« **القدس في الشعر الفلسطيني الحديث**» إن محمود يبرر ذلك بأنه يعتبر نفسه فلسطينيًا وكنتاج هذه الأرض الفلسطينية، أحد الذين يملكون حق أن يرثوا كل تاريخ الإبداع والثقافة التي جرت على هذه الأرض ومنها التوراة.

ننتقل إلى موضوع آخر، حول القدس، وهو التخاذل بشأن القدس، فيقول إبراهيم رجا سلامة، في القصيدة السابقة نفسها، وقد اعتصره الألم من العجز العربي، أمام التغول الإسرائيلي:

سبحان الذي خلق، خلق الشهداء من ألق

ما تقول عنا؟

هل ستعلن أنك منا براء

مهلًا أيها المسربل بالوطن

إنا كما قيل

ليس على العاجز من حرج.

وكان قد سبقه في هذا المجال الشاعر إبراهيم الدباغ(*) في قصيدة بعنوان فلسطين الدامية:

أين الفتى العربي المستهان به ... يوم الكريهة هل ضاع الفتى العربي؟

متى أرى القوم حول الصخرة اجتمعوا ... بعد التفرق من ناءٍ ومقترب؟

إني أرى حولها برقًا وجلجلة ... وقد خلا رعدها من هاطل المطر

(*) عاش معظم عمره في مصر، لكن فلسطين بقيت في قلبه ووجدانه، وقد عاش فيها قبل النكبة عام ١٩٤٨، لكن الخطر كان يلوح واضحًا، والتفرق العربي المزمن على حاله، وكان يصدر مجلة «الطليعة»، وهي مجلة شعرية، في الثلاثينيات من القرن الماضي، مطبعة محمود توفيق بالدَّرَّاسة، ونشرت قصيدة «فلسطين» بها عام ١٩٣٨.

ولم يتخلف الشاعر حسن البحيري(*)عن ركب النقد للتخاذل العربي والفلسطيني، ففي ديوانه «**لفلسطين أغني**» قصيدةً بعنوان «**المسجد الأقصى**»، نظمها عند زيارته للقدس، آب/ أغسطس عام ١٩٤٨، وبعدما استعرض ما يتهدد المسجد الأقصى من خطر، وتخاذل الأشقاء، والإخوة، ثم توجه إلى ملوك العرب يلومهم على التخاذل قائلًا:

ما بالكم يا ملوك العرب في دعة

وأمة العرب واحزناه تحتضر؟!

ثم توجه لكل منهم بنقدٍ لاذع لا يخلو من خطابٍ عنيف، بمن فيهم الحاج أمين الحسيني، رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، آنذاك، الذي يعيش في لبنان بعيدًا عن معاناة شعبه، قائلًا:

يا للزعيم الذي لاثت عمامته

كف الدخيل وألوى خده الصعر

قصوره في ذرى لبنان ساقفة

زاهٍ سناها ومرعى عيشه خضر

وشعبه في فلسطين الأسى اصطلحت

سود الليالي عليه وهو يحتضر.

ثم يقول مخاطبًا هؤلاء الزعماء:

يا خانعين إلى الأعداء يوردكم

سوط المذلة وردًا ما له صدر

وخانسين عن الأحداث ماضية

بكم تقاعس عن إدراكها الخور.

ثم ينذرهم بعاقبة تخاذلهم عن نصرة القدس، قِبلتهم الأولى، إن لم يبادروا لإنقاذها:

قوموا ادفعوا عن حماكم ما ألمّ به

من نائبات بدجن الهول تعتكر

أو ارقبوا من رياح الشعب عاصفة

تجتاح من صغروا منكم ومن كبروا

تمضي بكم في متيهات الفناء فلا

يبقى على وجهها من رجحكم أثر .

(*) ولد حسن البحيري عام ١٩٢١ في مدينة حيفا، وعاش فيها يتيمًا، نشأ على سفوح جبل الكرمل، وتأمل ذلك الجمال، والإطلالة الساحرة على البحر، عشق أزهاره. وأعشابه، تفتحت عيناه على ما يجري في فلسطين من عملية إحلال للغرباء، على حساب أهله، وعشيرته، فكتب الشعر مبكرًا، ووهب حياته لشعره.

في كثيرٍ من المواقف رأينا الشاعر يتنبأ، وينبِّه، وينادي، فهذا الشاعر إبراهيم طوقان(*) نبَّه، مبكرًا، لنبذ التناحر الحزبي الفلسطيني، وأنذر، في الثلاثينيات من القرن العشرين، بعاقبةٍ وخيمةٍ من جرائه، حين قال في قصيدة بعنوان «القدس»:

دار الزعامة والأحزاب كان لنا قضية فيك ضيعنا أمانيها

هل تذكرين وقد جاءتك ناشئةً غنية دونها الأرواح تفديها

تود لو وجدت يومًا أخا ثقةٍ لديك يوسعها برًّا ويحميها

ما كان كفؤًا عفيف النفس كافلها ولا أبيًّا حميّ الأنف راعيها

ولا أفادت سوى الأحقاد تضرمها فوق البلاد (زعاماتٌ) ونذكيها

ولم تبال بما تلقى لها حطبًا ولا بأيّ كرام الناس ترميها

قضية نبذوها بعدما قتلت ما ضر لو فتحوا قبرًا يواريها؟!

وبعده نبَّه الشاعر عبد الرحيم محمود(**) إلى خطورة ما يتعرض له المسجد الأقصى، وفلسطين، في قصيدته التي أنشدها في استقبال الأمير سعود بن عبد العزيز، الذي مر بقرية الشاعر، في طريقه إلى بيت المقدس، في أغسطس/آب ١٩٣٥، بعنوان «نجم سعود»، وقال مخاطبًا:

يا ذا الأمير أمام عينك شاعر

ضمت على الشكوى المريرة أضلعه

المسجد الأقصى أجئت تزوره

أم جئت من قبل الضياع تودعه

حرم يباع لكل أوكع آبق

ولكل أفاق شريد أربعه

وغدًا، وما أدناه، لا يبقى سوى

دمعٍ لنا يهمي، وسنٍّ نقرَعه.

***

كان لما تتعرض له فلسطين من أخطارٍ تهدد بضياعها أثر كبير على الشعراء الفلسطينيين، فكتبوا حزنًا، وغمًّا عليها،

(*) من مواليد نابلس، عام ١٩٠٥، وهو ابن عائلة طوقان الثرية، درس في نابلس، والقدس، أما تعليمه العالي ففي الكلية الأمريكية ببيروت (الجامعة الأمريكية، حاليًا)، ونال شهادة الجامعة في الآداب، عام ١٩٢٩. عمل، بعد تخرجه، بالتدريس في مدرسة النجاح بنابلس، ثم في الكلية الأمريكية، عام ١٩٣٩، تسلم القسم العربي في إذاعة القدس، وعُيِّن مديرًا لإدارة البرامج العربية حتى عام ١٩٤٠، عاجله المرض في شبابه، ولم يمهله، فقد توفي عام ١٩٤١، عن ستة وثلاثين عامًا، تاركا حصيلةً شعريةً وفيرة، والعديد من المقالات، والأحاديث الإذاعية.

(**) ولد في قرية عنبتا عام ١٩١٣، عاش اليتم مبكرًا، نشأ في ظروف الحرب العالمية الأولى، ثم الانتداب البريطاني، شاهد وطنه يتسرب من تحت أقدامه، ليحتله الغرباء. كل هذه الأحداث صهرت موهبته، فكان شعره زاخرًا بعاطفة متأججة، متنبئًا، بحسه الشعري، المستقبل المظلم المقبل على البلاد.

وعلى مقدساتها، ففي وقتٍ مبكر، وفي الثلاثينيات من القرن الماضي، كتب الشاعر مطلق عبد الخالق(*) قصيدةً بعنوان «فلسطين الشهيدة»، جاء فيها:

وخرت صخرة الأقصى خشوعًا ومهد يسوع مما شام ريعا
مآسٍ ما رأى الدهر شبيهًا لها مما عرفنا أوهِ قريعا

عن الاحتلال ومآسيه يكتب راشد حسين(**) قصيدةً بعنوان «القدس... والساعة»، تضمنها ديوانه «أنا الأرض لا تحرميني المطر»، يقول:

كانت الساعة في القدس قتيلًا وجريحًا ودقيقة
ولهذا كلما مرت بمحتلي عيون القدس طفلة
طفلة بنت صغيرة
فتشت أعينهم آلاتهم في صدرها
في رحمها
في عقلها
عن قنبلة
وإذا لم يجدوا شيئًا أصروا
هذه البنت الصغيرة
ولدت في القدس
والمولود في القدس
سيضحى قنبلة
صدقوا ... المولود في ظل القنابل
سوف يضحى قنبلة.

كما يتحدث خليل توما(***) عن الاحتلال في قصيدته «أغنيات الليالي الأخيرة»، في ديوان يحمل الاسم نفسه:

خرجت من أجداثها كتائب البرابرة

(*) ولد بالناصرة، وتلقى تعليمه بها، تميز بالذكاء، وسعة الاطلاع، عمل بالصحافة، لم يمهله القدر، فتوفي إثر حادثٍ أليم عام ١٩٣٧ وهو في سن السابعة والعشرين، نظم الشعر في التاسعة من عمره.

(**) ولد في إحدى قرى أم الفحم، عام ١٩٣٦، أنهى تعليمه الثانوي في الناصرة، ثم عمل محررًا لمجلتي «الفجر»، و«المرصاد»، وكان ناشطا في «حزب العمال الموحد» (المابام). ترك فلسطين عام إلى الولايات المتحدة، وتوفي عام ١٩٧٧ إثر حريق شب في بيته بنيويورك، وقد كتب قصيدةً بعنوان «القدس .... والساعة» تضمنها ديوانه بعنوان «أنا الأرض لا تحرميني المطر»، منشورات فلسطين الثورة، ١٩٧٦، في بيروت.

(***) ولد في بيت جالا، عام ١٩٤٥، حصل على الشهادة الجامعية في الأدب الإنجليزي من جامعة بيت لحم، عمل في الصحافة، صدر ديوانه الأول بعنوان «أغنيات الليالي الأخيرة»، عام ١٩٧٥ وهو في سجون الاحتلال.

شقَّت كتل الصخر عن صدورها

فرَّقت ورق التوت

ولفافات الأسطر المحنطة

فإذا رائحة الموت تعانق أزهار الليمون

ماذا رأيت؟

سارت القدس أسيرة

جسدًا يستغرق كل الصلوات.

عن العشق والحب لهذه المدينة، أنشد الشاعر أسعد الأسعد(*) إحدى قصائده عن القدس، على مسرح البالون بالقاهرة، عام ١٩٩٠، بمناسبة قيام الرئيس ياسر عرفات بتكريم الأدباء، والشعراء الفلسطينيين، عَبَّر فيها عن مشاعره الحزينة، وهو يمر على معالم القدس، ومنظر الغرباء المنتشرين في نواحيها، ينغِّص عليه، ويختتمها بهذه الأبيات:

غريبٌ أنت وحلمك مسكونٌ بالغرباءِ

تتبعك كلاب الصيد

تعشش في الطرقات عناكب تقتل حلمك

فحذار حذار، تشبث واحرس حلمك من أعينهم

وافتح للحلم نوافذك

تهب الريح، وتمتد الشطآن

تشبث،

في ليلٍ يفتقد العاشق عاشقه

يلتف الكل بعشق، قد يأبى ذات صباح

واصل حلمك وتشبث وتذكر

في باب العامود بشر من كل الملل

وكل الألوان

ولونك مطلوب من دون الألوان.

أما هارون هاشم رشيد، فقد كتب قصيدةً مليئةً بالعاطفةِ والحبِّ لمدينةِ القدس، أرضًا وجبلًا، وشجرًا، وزهرًا، تصل إلى حد العشق:

أحبك يا قدس لا تسأليني

لماذا وكيف وماذا أحب

(*) شاعرٌ، وأديبٌ، وباحثٌ فلسطينيٌّ، وُلِد بالقدس، عام ١٩٤٧، حمل هموم بلاده، وأنشدها شعرًا، ونثرًا، وروايةً، أفرد للقدس ديوانًا بعنوان «أنت ... أنا ... القدس والمطر».

فإني حملتك جرحًا ثخينًا

بأعماق قلبي ونارًا تشب.

ويسرد في وصفه جمال المدينة، من قبابٍ، ومآذن، وعطرِ الزهورِ في ربوعها، والزيتون في حقولها، ويختتم بأبياتٍ متفائلةٍ بالنصر:

ولا بد للعاشق المستهام

وإن طال ليل وأظلم درب

بأن يلتقي بهواه الكبير

فيحلو لقاء ويزدان قرب

على صهوة من رياح الفداء

يجيء إليك مع النصر شعب.

لا تخلو كتابات الشعراء من الانتشاء بالمقاومة، والدعوة لها، فيكتب خالد أبو خالد، الشاعر الفلسطيني، ابن سيلة الظهر، للوطن، وتظل فلسطين دائمًا حاضرةً في كتاباته، وفي ديوانه الخامس، بعنوان «**وشاهرًا سلاسلي أجيء**»، كتب قصيدةً بعنوان «**قرطبة في هجرة صقر قريش**»، جاء فيها:

هنا الصوت والبحر يختلطان

وينحل صمت البنادق حولي

وينهض تشرين بوابتين

إلى القدس واحدة، وإليك ... إليكِ

- انتبه!

- أين تمضي ؟

- هنا القدس

وتشتعل الأرض سكينة تتحول

ترسم أدخنة المدفعية

والدم خارطتي

للسهوب التي عرفتني.

في «**العنوان الجديد**»، قصيدة الشاعر جمال قعوار(*)، يخاطب فيها القدس بعد الانتفاضةِ مباشرةً، ويقول:

جددي يا قدس عهدًا

واكتبي في الكون مجدًا

(*) ولد بالناصرة، عام ١٩٣٠، وتلقى تعليمه الابتدائي، والثانوي بها، عمل معلمًا بدار المعلمين بحيفا، ثم التحق بجامعتها، وحصل منها على إجازته في اللغة العربية، ثم حصل على الماجستير في اللغة العربية من الجامعة العبرية، غزير الإنتاج الشعري، مع الجودة.

وانشري في أضلع المحتل رعبًا

ليس يهدأ

****

لتعود القدس حرة

لتبقى أبدًا في جبهة التاريخ غُرَّة.

ويبقى جرح القدس غائرًا في نفوس الفلسطينيين، لا سيما الشعراء منهم، فهذا سميح القاسم(*) يكتب في ديوان «**جهات الروح**»، قصيدة «**انتقام الشنفري**»، قال:

ويومًا بذات الجليل

ويومًا بذات الخليل

ويومًا بيافا وحيفا

وبيروت باريس عمان روما

ويومًا بكل الحواضر

كل المنابر

كل المقابر

وللشمس أمر

وللقدس دهر

يحاذر حينا

وحينا يجاهر

وشعب على العسف والخشن صابر

وللقدس جرح يهز الضمائر ...

ما من ضمائر

ذريني يا أم واسترسلي جثة في كثيب

ذريني ليأسي وغنمي

إذا حرموني الحبيب فإني المحب وإني الحبيب

وماضٍ وحاضر

ومستقبل في غياب هذا الزمان المغامر.

(*) ولد عام ١٩٣٩ لأسرة درزية، تعلم في مدارس الراحة، والناصرة، وعلَّم في مدارسها، ثم انصرف إلى الحياة السياسية، قبل أن يتفرغ لعمله الأدبي، وهو من أبرز الشعراء الفلسطينيين، غزير الإنتاج الفكري، والشعري.

في الختام عذرًا؛ لأنني في هذه العجالة لم أستطع تغطية جميع الشعراء الفلسطينيين، فليس ثمة شاعر فلسطيني لم يأت بشعره عن القدس، فالقدس ملهمة الشعراء، وهي في مكانة القلب لكل الفلسطينيين، والعرب، ونختتم هذا الموضوع بقصيدة طويلة، للشاعر الفلسطيني الشاب تميم البرغوثي(*) «**في القدس**»، حيث جمعت القصيدة كلًا من التاريخ، والمكان، والحب، وظلم الاحتلال، والحنين، والتفاؤل، نقتطف منها:

مررنا على دار الحبيب فردنا ... عن الدار قانون الأعادي وسورها
فقلت لنفسي ربما هي نعمة ... فماذا ترى في القدس حين تزورها
ترى كل ما لا تستطيع احتماله ... إذا ما بدت من جانب الدرب دورها
وما كل نفس حين تلقى حبيبها ... تسر ولا كل الغياب يضيرها

ويعبِّر عن تعلقه بالمدينة قائلًا:

متى تبصر القدس العتيقة مرة ... فسوف تراها العين حيث تديرها

يمضي في استعراض الوجوه في القدس، حيث المهاجرون أتوا من جميع أصقاع الدنيا، ويعود إلى استعراض متى مروا عليها عبر التاريخ المحفور على حجارة أبنيتها، ونرائحة توابلها في حوانيت خان الزيت سحر، يخاطب الشاعر:

في القدس رائحة تلخص بابلًا والهند
في دكان عطار بخان الزيت
والله رائحة لها لغة ستفهمها إذا أصغيت
وتقول لي إذ يطلقون قنابل الغاز المسيل للدموع عليّ: لا تحفل بهم
وتفوح من بعد انحسار الغاز وهي تقول لي: «أرأيت»؟

ثم يستعرض من مر على المدينة سواء غازيًا أو زائرًا:

فالقدس تقبل من أتاها كافرًا أو مؤمنًا
امرر بها واقرأ شواهدها بكل لغات أهل الأرض
فيها الزنج والإفرنج
والقفجاق والصقلاب والبشناق
والتاتار والأتراك
أهل الله والهلال
والفقراء والملاك

(*) ولد بالقاهرة عام ١٩٧٧، وهو ابن الشاعر مريد البرغوثي، درس العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية، يكتب في الشعر، وفي السياسة.

والفجَّار والنُّسَّاك

فيها كل من وطئ الثرى

أرأيتها ضاقت علينا وحدنا

يا كاتب التاريخ ماذا جد فاستثنيتنا

يا شيخ فلتعد الكتابة والقراءة مرة أخرى، أراك لحنت.

ويختتم القصيدة بنبرة حزينة لكنها متفائلة:

العين تغمض ثم تنظر

سائق السيارة الصفراء مال بنا شمالًا نائيًا عن بابها

والقدس صارت خلفنا

والعين تبصرها بمرآة اليمين

تغيرت ألوانها في الشمس من قبل الغياب

إذ فاجأتني بسمة

لم أدر كيف تسللت في الدمع قالت لي وقد أمعنت ما أمعنت

«يا أيها الباكي وراء السور» أحمق أنت؟

أجننت؟ .. لا تبك عينك أيها المنسي من متن الكتاب

لا تبك عينك أيها العربي واعلم أنه

في القدس ما في القدس لكن لا أرى في القدس إلاّ أنت.

***

مراجع الفصل الرابع:

- الشيخ إبراهيم الدباغ، **الطليعة**، مطبعة محمود توفيق، الدَّرَّاسة، ١٩٣٨.
- حسن البحيري، **لفلسطين أغني**، مطبعة دار الحياة، دمشق، ١٩٧٩.
- **ديوان إبراهيم طوقان**، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨.
- **ديوان أبو سلمى**، دار العودة، والاتحاد العام للكُتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨١.
- خالد أبو خالد، **وشاهرًا سلاسلي أجيء**، بيروت، منشورات الاتحاد العام للكُتاب والصحفيين الفلسطينيين، رقم٨.
- خليل توما، **أغنيات الليالي الأخيرة**، القدس، منشورات صلاح الدين، ١٩٧٥.
- راشد حسين، **أنا الأرض لا تحرميني المطر**، بيروت، منشورات فلسطين الثورة، ١٩٧٦.
- سميح القاسم، **جهات الروح**، القاهرة، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.
- عبد الرحيم محمود، **روحي على راحتي**، نابلس، مركز إحياء التراث، مكتب الكرمل، ١٩٨٥.
- فاروق مواسي، دراسة بعنوان: **القدس في الشعر الفلسطيني**، موقع أفق على الشبكة العنكبوتية.
- هارون هاشم رشيد، **مفكرة عاشق**، دار سيراس، تونس، ١٩٨٠.

obeikan.com